تغيير رهين بتغيير !!

بقلم ماجد رسلان

الداعية الغريب في هذا العصر ينبغي أن يسعى إلى تغيير الواقع الحالي وتحويله إلى ما يحقق شـــريعة الله في الأرض لتنعم البشرية بمنهج الله الحق ، وبخاصة وهو يتلو ويسمع قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ... ﴾ [الرعد : ١١] . فإنه يتوجب عليه أن يقف خاشعاً متبصراً أمام هذا التنـــزيل الجازم ، وينهض من فوره أمام هذا التقرير الحازم نحو التغيير الجاد ، والتحول الجاد سواء على صعيد نفسه ، أم على صعيد من حولـــه ، بدءاً من خليته الصغيرة لأسرته ، وانتهاء بالخلية الكبيرة لمجتمعه ، آخذاً الزاد –وهو في أتون الصراع المتعدد الألـــوان– من الرجال أولي العزم ، الذين سبقوه في هذا المضمار ، وكانوا منارات الهدى للبشرية ، التي خاضت بُحور ظلمـــات بعضها فوق بعض من الجهالات والخرافات والانحرافات والضلالات .. فهذا نوح عليه السلام مكث ألف سنة إلاّ خمـــسين عاماً ، لم يستجب له إلاّ نفر قليل قليل ، ومع كل هذا لم يتطرق إليه وهن عزيمته ، و لم يلحقه إحباط عن متابعة عمل دؤوب ، واستمرت محاولات التغيير والتحول طوال هذه الفترة المديدة ، ولسانه يلهج بدعاء ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَـــوْمِي كَذَّبُونِ ۞ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا** ... ﴾ [الشعراء : ١١٧-١١٨]

وهذا خاتم الرسل محمد ﷺ بُعث في زمن عمَّ الكفر أرجاء الأرض واستحكمت الوثنية على البـــشرية في كـــل شؤون حياتها ، وعربدت الأساطير والخرافات بسلوكياتها وأحوالها ، وسالت الدماء أنهاراً جراء توافه من الأمور يأباها المنطق ويضحك منها العقل .. فإنه ﷺ لم يقف البتة ، بل لم يحاول أن يخلد إلى شيء من الراحة أو الاستراحة ، بـــل سعى إلى الناس كافة طوال ثلاثة عشر عاماً ، حاملاً بكل كيانه وأحاسيسه ومشاعره ، دعوة الحق ، ومنهج النور إلى مختلف مضاربهم وأمكنتهم ، وفي مختلف مناسباتهم وظروفهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده على بصيرة من أمره وقـــد لاقى جراء ذلك من العنت والرهق والأذى ما لا يعلمه إلاّ الله سبحانه . حتى أذن الله بالفرج ، وعـــم الخـــير ، وتم التغيير والتحول ، وانتصر الحق ، وقام قائم العدل في كل مكان ، والتحق بالرفيق الأعلى بعد ثلاثة وعشرين عامـــاً ، بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة .

واستدار الزمان كهيئته كما كان ، وعادت الجاهلية جذعةً –بل أشد وأنكى– تستند إلى علم متطور تـــستخدمه أسوأ استخدام ، وتعتمد على فلسفات فكرية ، وثقافات وأفكار نفسية ، وإمكانات شتى من طاقات وموارد في دعم الشر والباطل ، مما جعل خطورة الصراع معها فظيعا .. وحيال ذلك لا بد للدعاة الذين هم على قدم رســـول الله في

وراثة الخلافة أن يجددوا للدين عهده ، وللعقيدة شبابها ، وللإيمان سلطانه ولعمل الخير دوره ، وللأخوة الإيمانية وجودها وفاعليتها ، وهذا لن يتأتى ولا غيره إلاّ بأسباب ومسببات ، وشروط ومقدمات ، منها :

١) ينبغي للداعية أن يتبصر أمراً في غاية الأهمية والعنفوان وهو أن إيمانه بدعوته وبتكاليفها الباهظة في الأهل والمال والولد ، ومقتضى وجودها وأثرها الفاعل ، لا بد أن يكون واضحاً وضوح الشمس في نفسه ، مسيطراً على فكره وعقله ، راسخاً رسوخ الجبال في سلوكه وأفعاله ، صادقاً صدق الأنبياء في نياته وأقواله ، وأنه في أشرف مهمة وأنبل تكليف ، فإن كانت عقيدته كذلك ، فإن معين الصبر والمصابرة ، والجهاد والمجاهدة ، والدفع والمدافعة ، يمده دائماً بزاد ريّات لا ينقطع أثره على طول المدى! .

٢) لا بد من استحضار أدوات الدعوة إلى الله من العلم والفهم ، والحكمة والبصيرة والصدق والإخلاص ، وربط العمل العبادي بالله ، بأنه يراه ، وعدم الاستعجال في قطف الثمار قبل الأوان ، لأن عدم الرّيْث ، وشطحات العُجلة المتهورة قد أجلبت بخيلها ورجلها الطامات الطاغيات على الدعوة عبر أدوار مختلفات ، ما خلّفت إلاّ الدمار والخراب والهلاك ، وتبديد الجهود والطاقات ..

٣) لا بد من فهم الواقع المحيط بأمته والعالم من حوله إحاطة السوار بالمعصم ، فهماً بصيراً على كل صعيد نفسي واجتماعي وأخلاقي ، وفكري وثقافي وفلسفي وأدبي وروحي ومادي .. وبخاصة في عصر أصبحت الكرة الأرضية – بوسائل الاتصال المتعددة– قرية صغيرة ، كل شيء فيها بمتناول الأيدي !!

كما لا بد من دراسة هذا الواقع المحلي والعالمي دراسة علمية ناضجة ، وتمحيصه تمحيصاً يدل على مساربه ومخارجه ، لتجنب مثالبه وشروره وآثامه ، مع الأخذ بعين الاعتبار واقعات الماضي وأحداثه ، لأنها تمدّ الحاضر بخبراته وسلبياته وإيجابياته على حد سواء ! .

وأن هذا الحاضر بكل ما فيه من تقديم وغربلة ، ونقد بناء دقيق سيُكوِّن حصانة أصيلة ، ويقيم ثوابت متينة ، في صنع المستقبل المنشود الذي تعقد عليه الآمال في تحقيق التغيير والتحول لتحكيم شريعة الله عزَّ وجلَّ في الأرض قاطبة.

٤) لا بد من إحياء العمل على الكتاب والسنة الصحيحة ، ففيهما الغَناء كل الغناء لمسيرة سليمة مأمونة من الاختراق ، قائمة على دعائم الحق الذي قامت عليه السموات والأرض نظاماً وإتقاناً وثباتاً ، مع الاستئناس بميراث وتراث السالفين الخيّرين ، وهذا العمل يوحّد مصادر التربية والثقافة والفكر والرؤى والتصور ، ويؤلف بين القلوب والأحاسيس والمشاعر ، وهو قمين بالابتعاد عن مزالق الاختلاف والخلاف ، الذي فرّق وحدة أمتنا توجهات شتى ، وجماعات مختلفة ، وأحزاباً متباينة تهيم على وجهها على غير هدى ، حتى غدا لكل جماعة إسلام يتغاير مع إسلام الآخرين في الفهم والتصور ، والعمل والتطبيق !! .

إذن لا بد من عودة الجميع إلى إسلام ربّ العالمين ، وأن يكونوا أبناءه وحده ، لأنه يسع كل فكر وكل فقه وكل اجتهاد وكل تفسير وكل تأويل .. وليس العكس في ذلك صحيحاً البتة ، فدين الله أشمل وأوسع وأنبل من كل ما يتصوره إنس وجانٌّ مجتمعين ! ﴿ **قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ [الكهف : ١٠٩]

مع العلم بأن هذا العمل يصون وحدة الأمة من التبدد والتشرذم ، وبخاصة في عصر سمته الواضحة البارزة اللقاءات والتكتلات بين أمم مختلفة الثقافات والمشارب والأفكار والإيديولوجيات والفلسفات .. فكل تجمع متفرق هو مسحوق لا وجود له في عمل أو تأثير ، وكل تفتت وتبعثر هو موات في موات .

وإن هذا العمل لا بد يكون القاسم المشترك في كل عمل وتخطيط ، وكل دراسة وتنظير .. بين كل الاتجاهات والجماعات لتنصب الجهود والطاقات في بوتقة الدين الشامل الكامل الذي رضيه الله لنا ، وأن الجميع هم بناؤه وعماده .

٥) لا بد لهذا من العمل القائم –على الكتاب والسنة– من الاعتماد على توفيق الله ورعايته وكلاءته من كل الدعاة إلى الله ، في كل حركة بل في كل هاجسة ، وهذا لن يكون إلاّ أن تكون القلوب مرتبطة بخالقها وحده ، عايدة له وحده ، ملبية له وحده ، خاشعة له وحده ، مراقبة له وحده ، متوكلة عليه وحده ، مستعينة به وحده ، صابرة له وحده ، متجهة إليه وحده ..

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه (شرح منازل السائرين) :

(إنّ التوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك ، وضده الخذلان وهو أن يخلي بينك وبينها ، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا ، فيطيعه ويرضيه ، ويذكره ويشكره بتوفيقه ، ويعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له ، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه ، فإن وفقه ففضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته ، وهو سبحانه المحمود في هذا وهذا له أتم حمدٍ وأكمله ، فإنه يمنع العبد شيئاً هو له ، وإنما مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله) .

وأخيراً يقول الأستاذ عصام العطار حفظه الله : (يجب أن يقف في أنفسنا الانهيار ، ويبدأ في أنفسنا التحول .. فإذا تحولنا إلى مسلمين حقيقيين كما يريد الإسلام ، تحول بنا مجتمعنا ، وتحول بنا المسلمون في كل مكان وتحول بنا العالم)

أجل إنّ أمة الإسلام أمة الإنقاذ ، لا بد من إنقاذ نفسها أولاً ، لكي تستطيع إنقاذ غيرها ثانياً ، أمة القيادة لا بد أن يقودها كتاب ربها وسنة نبيها لكي تقود البشرية ثالثا .

فهل آن الأوان لأن يعي المسلمون –في مشارق الأرض ومغاربها– وبخاصة حملة الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ ، هـــذه الحقيقة البسيطة السهلة الميسرة ، التي لفها الجهل البارد ، والتعصب البارد ، بأرديته حتى كاد أن يجهز عليها وتـــضيع معها حقائق كبيرة كبيرة كبيرة ؟!

وصدق الله العظيم : ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ... ﴾ [الرعد : ١١]